

الدين والأخلاق والرغيف

علم الاجتماع الحديث والحضارة في زمن الحرب

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

(١)

لما اندلعت السنة الحرب العالمية الأولى (أغسطس سنة ١٩١٤ - نوفمبر سنة ١٩١٨) كانت أوربا وأمريكا وكثير من بلاد الشرق غارقة في محيط المادية والالحاد ، فلم تكد تتوسط الحوادث وتدور الأفلاك دورتها الثانية حتى تنبث العاطفة الدينية في الأمم المحاربة خشية الهلاك ، وفي الأمم المحايدة خشية امتداد نيران الحرب إليها ، فكثرت الصلوات العامة في المعابد والميادان ونهض رجال الدين في كل مكان ليتهمزوا الفرصة التي كانوا يرقبونها وهي فرصة الاتجاه نحو الدين . وقد وصف هذا الاتجاه على رءوس أقلام بعض الكتاب بأنه مظهر من مظاهر الضعف في النفوس البشرية ، سببته نجاة الحرب وويلاتها ، كترمل النساء وتيمم الأطفال وانتشار الفقر وتشتت شمل الأسر ، وفقد الثقة في المستقبل وانهار آمال كثير من الأمم والجماعات .

ولكن هذه الحركة نحو الدين ازدادت كلما توغلت الحرب في صفوف الأمم ، وصحبتنا حركة أخرى وهي الحركة الروحية ، فذكر كثير من الأحياء أنهم رأوا أرواحا قتلى الحرب يتحدثون إليها وتكهنن لهم ببعض أمور المستقبل ، وكتبت الصحف الكبرى في إنجلترا وفرنسا أن كثيرين من الضباط والجنود شهدوا ملائكة يحاربون في صفوفهم ضد أعدائهم ويشدون أزهم ووكدوا مشاهداتهم بإجماع الكثرة وأيدوا شهادتهم برؤية العيان ، حتى إنك لتدهش من إيمانهم بهذه الواقعة التي كانت تعد في نظريهم من خوارق العادات ومهيجات الأنبياء .

وكتب المستشرق إدوارد براون خطابا مفتوحا إلى جريدة التيمس في سنة ١٩١٨ يقول فيه : إن بعض أمم الشرق المتدينة تعتقد اعتقادا راسخا في معونة الملائكة والأرواح الظاهرة للجيوش المؤمنة في أخرج وقتها كما روى المسلمون عن واقعة بدر الشهيرة التي انتصر فيها النبي "محمد" بثلاثمائة جندي من المهاجرين والأنصار على ثلاثة أضعافهم من مشركي قريش ! وتواترت عقيب ذلك كتب العلماء أمثال سير أوليفر لودج وسير كونا ن دويل عن "عالم

السر" والحياة الأخرى الخ ، ونشر كتاب صغير طبع بملايين النسخ بقلم الجاويش داوى Dowie زعم نأشره أنه من إملأء روح هذا الجندى البريطانى الذى سقط فى ميدان القتال على وسيط انجلىزى معروف .

وانتشرت الفكرة الدينية فى فرنسا وهى من أعرق الأمم فى حرية الفكر والزندقة Atheisme فأسس معهد الروحيات بإشراف الأستاذ Richet وانضم إليه فريق كبير من علماء الفلك وعلم النفس والطبيعات والاجتماع وغيرهم وكان فى مقدمتهم كاميل فلا ماريون الفرنسى ولومبروزو الإيطالى ، وقد أجمع هؤلاء جميعا على خلود الروح ووجود العالم الآخر ، وبالجملة صحة ما جاءت به الأديان ، فلما انتهت الحرب ووضعت أوزارها وطادت الحياة أدرأجها ووطد معظم المكولمين والمحرومين والمظلومين أنفسهم على الصبر على ما أصابهم هبطت تلك الحركة التى كان لليأس فى إيقاظها نصيب ؛ ولكن فريق العلماء والباحثين احتفظ بها وعمل على تغذيتها وتمييزها فاستمرت عشرين عاما إلى أن نفخ فى صور الحرب الراهنة ونهضت أمم للوقوف فى وجوه أم أخرى وقد اختلفت جميعها مبدأ ومشرأ ومترعا ، وكان بعضها مفرقا فى إنكار الأديان المتزلة كالصين واليابان وروسيا ، عادت فكرة الدين فنبتت فى أذهان الأمم المتدينة أصلا وأخذت الصلوات العامة فى المعابد والحديا كل تتوالى وعادت الأصوات تجأر بالدعوات والاستغاثات المتتالية .

ولكن أم الشرق العربى لم يفتر علمأؤها ومفكرها عن الدعوة إلى الدين لحظة ، لأن طغيان انمادة على الحضارة الحديثة كاد يدك صروح الايمان فى قلوب الشباب . وهم يمتقدون أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم بغير "مقيدة الدينية وقد أيدت ا لوادث نظريتهم بما وقع من الانبيار فى فرنسا فى سنة ١٩٤٠ وهى الأمة التى رفعت أعلام المادية والاباحية والاحاد عالية وزعم بعض مفكرها أن الحياة تستقيم باتباع مكارم الأخلاق المتفق عليها بين البشر بدون حاجة إلى الوازع السماوى ، وأن الخضوع إلى الفضيلة حبا بها لا خوفا من عقاب ، ولا ارتقابا للثواب خير وأشرف وأسمى وأجدر بقدر الانسانية الرشيدة من الرهبة والرعب والخنوع التى تحتمها الأديان . وقد ظهر فى الوقت المناسب كتاب "المنبعان الختميان للدين والأخلاق" تأليف أشهر فلاسفة فرنسا فى العصر الحديث "برجسون" وهو آخر كتبه أدركته المنية بعد نشره ببضع سنين وقد أثبت فيه بسائر الطرق العلمية والطبيعية والمنطقية اتحاد مصدر الدين والنضائل . فكان هذا الكتاب العظيم بقلم حكيم العصر أفضل رد على الذين زعموا أن الأخلاق الفاضلة تنشأ بغير معونة الدين وأن الانسان قادر بمحض مجهوده الفعلى على أن يؤسس بناء من الفضيلة يفييه عن المعتقدات التى انطوت عليها الكتب المتزلة .

بيد أن الحال في الشرق كانت على غير تلك الخطة ، فإن معظم الشباب المتعلم في أوروبا عاد بالأفكار لمادية التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر والتي أطلت لإفلاسها في الحريين العالميتين ، ولتأخر علوم النفس والاجتماع في الشرق تتقوى الأفكار الجديدة المنتزعة من التقيد الأعمى والاكتفاء بقشور العلوم ، فلا ينتظر أن تجتث الإباحية والإلحاد والاستهتار والفساد من بلاد الشرق حين دخلت إليه بمد قرة قصيرة ، بل لا بد أن تقتضى زمنا حتى يثبت ضمفها وعدم ملاءمتها ، وحتى تقنع العقول التي احتضنتها وتغذت بها أن أصحاب الأمر بالأصلاء فيه قد زرعوا عنه وانفصلوا وارتدوا وسلكوا سبيلا أخرى ، ومثلهم في ذلك مثل المريض بالعدوى أو المجاور للحريق . لا بد أن يعالج الأول وتطفأ النار في دار الثاني . وكلا الأمرين يحتاج إلى وقت وجهود مضية ، ولست من المتشائمين أو الحاشقين على هذه الأحداث أو على الذين سببوا وجلبوها ، لأن العقل البشري في حاجة إلى التطلع والاقباص والتطور . وليس الشرق العربي كالصين يعيش وراء سور من الصخر متين ، ولم تنقطع حركة تبادل الأفكار بين الشرق والغرب فلا بد من حدوث هذه الطوارئ التي يفرح لها العاقل لأنها بمثابة التطهير والتنوير .

وقد التجأ الإنسان في كل أطوار حياته الى الدفاع عن معتقداته . وأهم المعتقدات الجديدة بالدفاع الدين وقد استوت جميع الأمم في تلك الفكرة — فكرة الدفاع عن الدين — لأنها جزء من الثقافة الإنسانية ، فسواء أكانت الأمة عربية أم شرقية فهذه العاطفة الناشئة عن الفريزة البشرية قوية عندها جميعا . قوية في الغرب (أوروبا وأمريكا) وقوية في الشرق (الهند والصين واليابان) فسواء أكان العقل المصري شرقى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء أم غربيا في التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء . ومصر وإن بعدت عن الهند والصين واليابان في تلك الخلال الآتفة الذكر (التصور والإدراك والفهم) فهي قريبة من سوريا وتركيا والعراق والفرس وأفغانستان والحجاز وشمال أفريقيا أي العالم العربي كله . حاجتنا الى الدفاع عن الدين . بجانب أنها غريزية وعاطفية . مرتبطة كل الارتباط بتطور هذه الأمم . فكبار المفكرين في مصر يدافعون عن المعتقد من ناحيتي الأدب والعلم حيال أدوار الانتقالات العقلية التي ما تزال تتحول وتبديل وتتجدد تحت تأمير الكشوف العالمية الحديثة والتجارب العلمية والحيوية والاجتماعية المتتالية .

وإذن تكون تلك للبحوث النفاضة التي بدأت أثناء الحرب العالمية الأولى وازدهرت أثناء هذه الحرب قد اتجهت نحو تشجيع العلماء والمصلحين في توجيه الشباب نحو الدين على طريقة منورة ، بعيدة عن الحيف والتنطع ، ملائمة لروح العصر الاجتماعي ومنافية كل المنافاة للتعصب . ونحن لا نضيف إلى تلك الحركة ، نهضة التصوف الحديث New Theosophy التي

طهرت في الشرق عقب أعمال السيدة آني بيزانت في الهند ولويس ماسيون في فرنسا وادوارد براون وارنولد نيكولسون في إنجلترا وقد ألفوا كتباً كبرى تعد من أعظم مراجع العلم والأدب في التصوف الشرقي عامة والإسلامي خاصة فليرجع إليها من يشاء .

(٢)

بين المعتمد لديني ولدفع عن الدين إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وتعلق الإنسان بالمثل الأعلى حتى يصير "الإنسان الكامل" ما عود خطوة واحدة، وهذه كلها أهم هدف للعلم الاجتماعي في أنحاء العالم ولا سيما في زمن الحرب الطاحنة وكلها فروع لأرومة الثقافة الإنسانية العليا في الشرق والغرب فقد أدرك الغرب وبعض أمم الشرق أن بعث الثقافة من أهم العوامل التي تركز عليها النهضة الاجتماعية والحركات الإنسانية ، وأن الأمة التي تبني محدا عليها أن تتخلق في الأفراد روح الإيمان بالأخلاق الفاضلة وروح الإيمان بقابليتهم على الابتداع والاستكشاف وتنشئ فيهم الشعور بالعزة القومية ، وذلك بالاهتمام بمصنوعها ، وربطه بعناصرها ومستقلها وتعريف لشئته بجهود أسلافهم ومآثرهم في ميادين الثقافة والإصلاح . ولا كان طم من أترق تقدم الحضارة . ولا يتأتى هذا وذلك إلا بدرس الحاضر درسا عميقا صادقا . فذ نظر، حوالا في عامنا هذا نجد عالما صارحا ، صاخبا اندلعت فيه التيرن من كل جانب ويقول أحدا : "ليس لدى القدرة على فهم ماحوى أو إدراكه وتصوره ولا أستطيع بجزى وارتياحى أن أجد مرتكزا لعقيدتى في الأخلاق والفضائل بعد هذا الانهيار الذى أشاهده " واخفق أن لفرد معذور إذا ارتفعت صرخته بهذه الشكوى وإن يكن عاجزا عن إدراك حقيقتها المتأصلة في تطور الحياة العامة ولا سيما السياسة والاقتصاد وكلاهما إذا اختل توازنه صار بلاء على العائشين في عصر الاختلال . وإذا نظر المصلح الاجتماعي إلى ما يهول العالم ويرعزع كونه المادى والمعنوى رأى عين الخبير أن أصل البلاء نشئ من غريزة البقاء وبطاون الحياة المادية ورغبة القوة وطعياها جميعا على نواميس الطبيعة والفضيلة ، فغريزة بقاء وخروج الأشياء عن حدودها أحدثا التصادم بين الأمم وأفسدا نظم الهيا التي كانت جذيره بكتابة الأخلاق الفاضلة وسعادة البشر .

ولما كان أساس الأخلاق التمييز بين الخير والشر ، فالمرجع الأخير في سلوك الأفراد والجماعات ، تفريق بين هذين العنصرين للذين يتبعهما مبدءان متحان وهما الحق والباطل ، ولا يضر الإنسانية شئ أكبر من اختلاط الخير بالشر والحق بالباطل حتى يعجز الناقد الفصير عن التفريق بين كل مبدأ وفضله ، والعالم يحتاز في هذه البثرة المضطمة تلك المفازة لمهذبة ، معارزة البية إلى امزج خلافا الخير بالشر والحق بالباطل والفضيلة بالهدى . وقد نشق العالم إلى فريقين يدعى كل منهما أنه على الحق ، وكان هذا دأبه منذ الخالقة إلى الآن ، ولو لا هذا الانشقاق ما قام النزاع . ولا كفى أن تقرب للناس عامة ولخصمين خاصة إن

الحق ظاهر والباطل ظاهر ، فانه لو ظهر لها وأجمعا عليه ما تنازعا ، بل إن كل فريق منهما يعتقد أنه على حق ، وهذا محال لأن الحق واحد لا يتعدد ، والخير واحد لا يتعدد ، والهدى واحد لا يتعدد ، وقد يكون هناك حق نسبي وخير نسبي وهداية نسبية كما يوجد عدل نسبي وهو الذي تقسمه المحاكم الدنيوية بين الناس لتضع حدا للتنازع بينهم ، ولكن الحق المطلق والخير المطلق والعدل المطلق هي المقصودة بالذات ، لأجل هذا بدأت دحشة اناس في الحرب العالمية الماضية لما رأوا أمما أوروبية تتقاتل وتتحد إحداها ودولة شرقية أو دولتين لتشد أزرها على أمة أوروبية أخرى . وقديما كان المسلمون يميلون إلى الروم وهم غربيون وينفرون من الفرس وهم شرقيون حتى نزلت في عصر النبي عليه الصلاة والسلام سورة باسم الروم وفيها بشرى لهم بالنصر :

غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ .

فهذه الآيات الثلاث ناطقة بعطف الإسلام في نشأته على أمة تعارهم في الجنس والدين وتبعد عنهم ألوف الفراعنة .

وإلى جانب هذا التناقض الطاهر نرى شرا أعظم وأخطر وهو صدمة الروح الإنساني وهو القوة الخالقة المبدعة بعد الله في الكون فتلطح وجه الحضارة بالسوء كما تلطخت أيديها بالدماء فعمى الأفراد والجماعات عن نوااميس الأخلاق الفاضلة الكفيلة بسعادة البشر وإن هؤلاء وأولئك ليقولون إنهم دائبون على هذا لغاية واحدة وهي سعادة الإنسانية . ولا ينتج في الواقع من الشر إلا الشر . ولا يتولد عن الأذى إلا الأذى فيتضخم ويطنى على الخير والطف والمحبة ، وقديما قال الحكماء إن النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله ، ولكن الشر يقوى وينمو ويتضاعف تضاعف الجرائم المهلكة . وإن الجريمة تدعو للجريمة وعريزة الملاك تنتشر من الجماعات إلى الأفراد فتصحب الحروب جراءة الجناة وتحال الأخلاق والدفاع الغرائز السفلية وتسود المطاعم ويستهن المجتمع بالروابط الإنسانية كالمصادقة وحب الأسرة وصنع الخير وإيتاء البر للذوى القربى والقرىبا ، وترفع الأثرة رأسها ويتقظ حب الذات فيهدم في بضع سنين من بناء المكارم ما شادته الإنسانية في قرون وأجيال . وقد شاهد علماء الاجتماع هذا التدهور في الأخلاق رفقا وزميلا للحروب وأثبتوا أن عصور المجازر والمظالم حافلة بجرائم الاعتداء على الأرواح والأعراض والأموال بين الأفراد ، لأن الانسان الميل إلى الاحرام يرحب بالتمترات التي يضعف فيها الوازع الأدبي ويعتبرها ميدان مرح له وشك سيرة ونموذ ، وهو لا يمانع ان يضحق الذي يل يخذيه ويقتنيه .

إن رجل الأخلاق لا يقنع بأن ينجو مجلده وسط العالم الصاحب ولا يرضى أن يرقب عن بعد أو عن كتب إخوانه في الانسانية يموتون جوعاً وتخرّب دورهم وتهدد أوصالهم وهو جالس ينظر ويسجل . لأن كل ما يطنى على النواميس التي قبل أن يخضع لها رجل الأخلاق عليه أن يقاومه ويقومه حتى يعيد هذه النواميس إلى مكانة الاحترام التي كانت تحتها لأن نواميس الأخلاق ليست قواعد الأدب الظاهر Etiquette التي تواطأ الناس على اتباعها في المجتمع ، إنما نواميس الأخلاق القوازين الأساسية للحقائق العليا المطلقة أنتجتها آلام الاختبار الطويل في حياة البشر من ألوف السنين وارتعتها بقوة من تجارب أجيال القاسية فأنست على عقيدة واحدة وهي قدرة الإنسان على الازدهار في ظل الحب والتور .

(٣)

بق النظر الاقتصادي وربة الجوع ، فإن العالم الآن لا يخشى شيئاً أكثر من فقد قوته الضروري الذي طفت عليه المطالب الأخرى ، وقد شهد العالم في بعض الممالك الخصبية شحاً في الطبيعة وجدباً في الزرع وجفاناً في العرع وضيقاً في سبل العيش ، حتى ان صاحب الدرهم والدينار لا يستطيع شراء الرغيف وحتى عجرت الطبقات جميعاً عن تغذية الطفل والشيخ والميل . كتب الأستاذ لارس موبن Moen أن شرطياً بلجيكيًا عهد إليه الإشراف على توزيع الخبز في أوائل أيام الاحتلال وقضى يومين في " دوريته " فمر طعام ولا راحة فله سارى حربة الخبز مقبلة استوقفها ووثب عليها وخطف الرغيفان وبدأ يأكل بشراهة نادرة وقد تمكن مصور من تسجيل هذا المنظر الأنيب في صورة شمسية وكان ذلك سبباً في مسؤولية الشرطي وإن يكن معذوراً ، وإذا جاءت الشعوب فلا أمان لها ما حدى بعضى أمر رئيسه وقائده ، والمرأة تفرط في عرضها ، وصاحب المبدأ أو المذهب يتهاون فيه ويتسادل في عاقبة الأمور ، ويفضل الحاضر على المستقبل ، ويؤثر ضمان الحياة في يومه على تمسكه بالفضيلة لغده ، وتكثر الحيانة ، ويظهر الجواسيس في الأرض ، ويخون الرجل بكل ما اتصل إليه يده وعقله ، وقد شوهدت هذه المكروه في أثينا وروما في العصور المتدنية وكانت سبباً في ثورات كبرى وشوهدت تلك المآسى في فرنسا في عهد الثورة وقبلها تحت حكم لويس السادس عشر ، وشهدنا هذا في العواصم الإسلامية إبان الحضارة الكبرى في بغداد ودمشق ومصر .

وقد قبل إن الجائع لا يشور ، وهذا صحيح بمعنى أنه لا يقوم بشورة منظمة ولكنه يهيج يوماً أو بعض يوم فيحدث التخريب وتعم الفوضى ويشعل نيران الأضغان بين عناصر الأمة وفي أمثال الانجليز المشهورة الجائع غضبان A hungry man is angry. وفي أمثال

اليابان من نصائح الأم لبنتها "لا تجيبي زوجك فإن الخمصة فراق" وفي كلام عبدالله ابن الارقم "عجبت للرجل لا يبعد قوتا اعياله فلا يخرج على الاسباب بسيفه" وكان رسول الله صلى عليه وسلم يعنى عناية خاصة بأهل الصفة وهم أفقر فقراء المهاجرين فضانهم في مسجده والزهم جوار بيته وكان لا يتقدم أحد بدعوته الى طعام إلا ويتحجبهم، وإلا فالاعتذار عن الدعوة. وقال الاحنف "اتفوا غنمية الجائع حتى يطعم ويشبع" وفي أمثال الميداني "لا رأى لحاقن ولا لجائع". وكان عمر بن الخطاب فاروق الإسلام وأعدل حكام الارض قاطبة يطوف شوارع المدينة إيلا ويتفقد فقراءها خاصة فلما عثر ليلة على امرأة تتدع ابناها من الجوع وتودعهم بأنها تطبخ لهم طعاما على قدر إيمان بالماء الساخن حتى يناموا حمل لها الدقيق والسمن والسهل على كتفه وعاد اليها وعاونها في إعداد اثريد وأيقظهم فأكلوا ولم ينادهم حتى شبعوا وناموا ، وكانت خطته ألابيت مسلم من رعيته على الطوى ، لأن واجب الحاكم الأول ألا تغفلوا أحشاء الرعية مما يقوم أودها . وكان هم الرومان في حكم دولتهم أن يجملوا القمح الى رومه و يوزعوه على الفقراء وقامت في عاصمتهم ثورات كثيرة بسبب الجوع وحرصوا على ملك مصر لأنها كانت مخزن غلاتهم وكانت أهم قوانين السناتور الروماني (مجلس الشيوخ) مايسمونه قوانين القمح . وفي إنجلترا شغل الساسة في عهد الاحرار الأول (الثلث الاخير من عهد الملكة فيكتوريا بقوانين القمح Corn law واصلاح قانون الانتخاب ففضلوا إشباع البطون على إصلاح البرلمان . وأصل الثورة الايرلندية ثورة على الجوع فقد خلت الحقول من زرع القمح والشعير والبطاطس فهزعت الأمة بقيادة أوكونيل اولاً وبارنيل ثانيا ودي فاليرا أخيراً حتى نالت استقلالها وكان سبب ثورة ألمانيا الداخلية في سنة ١٩١٨ الجوع وموت الأطفال فسقطت الحكومة وفر الامبراطور وانسحبت الجيوش الحرارة تحت إمرة هندنبرج

هذه موعظة التاريخ في الدين والاخلاق والاقتصاد شرحناها بإيجاز لمن ألقى السمع وهو شهيد .

محمد لطفي جمعه